الصراع الحاسم
بين الطغيان والديموقراطية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

جازت الديموقراطية المعاصرة مرحلتين حاسمتين فى تاريخها : ففى غداة الهدنة التى اختتمت بها الحرب الكبرى استقبلت الديموقراطية طورا جديدا من القوة والظفر ؛ وكانت الحرب الكبرى من بعض الوجوه صراعا بين الطغيان والديموقراطية ؛ ففى معسكر الطغيان تجتمع الأسر القديمة الطاغية — آل هبسبرج وآل هوهنزلرن — والعسكرية البروسية تحركها أطماع مضطرمة فى السيادة الواسعة ؛ وفى المعسكر الخصيم تجتمع الأمتان العريقتان فى الديموقراطية فرنسا وبريطانيا ؛ وإذن فقد كانت هزيمة الدول الوسطى فى الحرب الكبرى هزيمة للطغيان واللوكية المطلقة ؛ وكان ظفر بريطانيا وفرنسا من بعض الوجوه ظفراً للديموقراطية والنظم الشعبية ؛ وظهرت نتيجة هذا الظفر واضحة فى قيام عدة من الجمهوريات الفتية فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، وفى دول البلطيق الصغرى ؛ فهذه مرحلة ظفر للديموقراطية المعاصرة

ونعمت الديموقراطية بظفرها بضعة أعوام ، ولكنها انحدرت إلى معترك من الشقاق الخطر ، وانقسمت إلى شيع متخاصمة ؛ وبدلاً من أن تجتمع فى معسكر موحد ، أخذت فى نضال عنيف مستمر فيما بينها باسم المبادئ والصيغ المختلفة ما بين اشتراكية وديموقراطية متطرفة ومعتدلة ، حتى دب الفشل إلى صفوفها ؛ وكانت أول نتيجة خطرة لهذا الشقاق قيام الفاشستية فى ايطاليا وسحق الديموقراطية فيها ؛ ولم تلبث قوى الطغيان أن ظفرت تباعا فى بولونيا حيث تقوم حكومات مطلقة تستتر وراء الجمهورية ، ثم فى ألمانيا حيث قامت النازية أو الهتلرية ونظمت أعظم طغيان عرفه التاريخ الحديث ، ثم فى النمسا حيث طغت الأحزاب الفاشستية ؛ وأما فى روسيا ، فان النظام الذى استحدثه البلاشفة للجمهورية الجديدة لم يكن سوى طغيان شنيع يستتر باسم سيادة الطبقات العاملة ؛ كذلك لم تلبث الجمهورية التركية الناشئة أن تحولت إلى طغيان عسكرى مطلق يستتر تحت نظام جمهورى صورى ؛ فهذه مرحلة انحلال للديموقراطية المعاصرة

والآن تبدو فى الأفق ظاهرة جديدة ؛ ولقد ظفرت الديموقراطية فى اسبانيا منذ أعوام قلائل ظفراً مبيناً ، فسحقت اللوكية الطاغية القديمة ، وأقامت حكم الجمهورية والنظم الدستورية ، ولكن هذا النصر كان محلياً ، ولم تفد منه الديموقراطية الأوربية قوة جديدة ، ولكنا نشهد من جهة أخرى وثبة جديدة للديموقراطية الفرنسية ، فقد أسفرت الانتخابات الفرنسية الأخيرة عن فوز عظيم لأحزاب اليسار أنصار الديموقراطية المتطرفة والحريات الدستورية الواسعة ، وهى تتربع الآن فى دست الحكم ؛ وأسفرت الانتخابات البلجيكية فى نفس الوقت عن فوز الأحزاب الاشتراكية ؛ وفى روسيا السوفيتية يتحول الطغيان البلشفى منذ أعوام إلى نوع من النظام الدستورى العام تنمو فى ظله الحريات والحقوق الفردية باطراد ؛ ومنذ أشهر قلائل شهدنا تحالف الديموقراطية الفرنسية ، والديموقراطية السوفيتية فى ميثاق مشترك لمقاومة الخطر الألمانى المشترك . فهذه الظروف والأحداث كلها تنم فى نظرنا عن أن

أن أكون منصفاً ، فانى أنا أثرت غيرتها بطول النظر إلى جارتها ، وأقول جارتها وإن كان بينهما مثل ما بينى وبينها هى من البعد

والحق أن جارتها جميلة فاتنة ، ولست أحبها — على الأقل إلى الآن — ولكنى لا أرى ما يمنع أن أحب الاثنتين معاً ، فان لكل منهما مزيتها وخصائص حسنها وتعبيرها الذى لا يشبه تعبير الأخرى ؛ والسمراء ألين وأسلس فى المنان على ما يبدو لى . نعم إن ذات الثوب الأرجوانى أسلم فطرة وأنقى وأخلص سريرة وأبسط قلباً وأبرأ من العيث ، ولكن تلك شيطانة مامونة وعفريتة من الجن تجعل الحياة كلها حركة دائبة ، وما قيمة الحياة الراكدة ؟ ؟ على أنى كما قلت لم أحبها بعد ، وإن كنت أعجب بحيويتها الزاخرة . وقد أحبهما معاً ، أو تستأثر بى التى هى أقدر ما؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

الديموقراطية الأوربية تدخل فى طور جديد من أطوار نهضتها

ومما يلفت النظر فى عوامل هذه الوثبة الجديدة التى يلوح لنا أن الديموقراطية الأوربية تجيش بها ، هو أن فوز الأحزاب الاشتراكية الفرنسية فى الانتخابات الأخيرة هذا الفوز الشامل يرجع من وجوه كثيرة الى المسألة الحبشية التى أثارتها الفاشستية الايطالية واتخذتها ذريعة للتوسع الاستعمارى المسلح ؛ فقد كان غزو الفاشستية للحبشة وظفرها بالاستيلاء عليها ممزقة بذلك كل العهود والمواثيق التى ارتبطت بهـا فى العهد القريب ، متحدية أوربا وعصبة الأمم والعالم كله ، مظهراً قوياً من مظاهر ظفر الطغيان المنظم ونفثة خطرة من نفثاته تنذر العالم بأخطر العواقب ، وكان موقف حكومة لاڤال الفرنسية وتقلبها ونفاقها إزاء المسألة الحبشية ، وما قامت به من المعاونات السرية لحكومة رومة ، أكبر عامل فى تتويج الاعتداء الفاشستى بهذا الظفر الذى تزهو به الفاشستية اليوم وتتخذ منه نذيراً لأوربا ؛ فلما ردت السياسة البريطانية على موقف فرنسا فى المسألة الحبشية ، بموقفها فى مسألة الرين وتخليها عن فرنسا ، أدرك الرأى العام الفرنسى أن فرنسا تخاطر بفقد صداقة انكلترا ، فلم ير بدا من التحول فى الانتخابات الأخيرة الى ناحية اليسار لتقوم حكومة تعمل بالتفاهم مع الديموقراطية الانكليزية ، وتتعاون معها على درء خطر الطغيان الفاشستى والطغيان الهتلرى

* * *

ومن الخطأ أن تعتبر هذه الحركات الطاغية الخطرة التى تضطرم بشهوة الاعتداء والتوسع حركات محلية لا تعنى سوى الأمم التى تقوم فيها . فالفاشستية مثلاً تزعم لنفسها صفة عامة ، وتدعى أنها أمثل النظم الحديثة للدولة وتدعيم القومية ، وضمان رفاهة الشعب ؛ ويزعم طغاة ألمانيا الجدد (هتلر وشيعته) أنهم رسل المثل الأعلى للدولة الكاملة ، والعظمة القومية ، ورفعة الجنس ، وأن نظرية الحريات الدستورية والحقوق العامة هى نظرية خطرة على كيان الأمم ، ويجب أن تكون جميع الحقوق والسلطات متمركزة فى الدولة ، والدولة فى نظرهم هى الحزب النازى ، ويزعم بعض دعاتهم أن هـذا النظام الغاشم سيعيش قروناً . ولقد كان لهذه الحركات والمزاعم بعض الأثر ، فظهرت فى انكلترا حركة فاشستية صغيرة ؛ واشتد ساعد الجمعيات الرجعية فى فرنسا ، وساعدت على ذلك ظروف سيئة ظهرت فيها النظم الجمهورية بمظهر النظم الفاسدة المفككة ، وعاونت بعض الفضائح الخطيرة مثل فضيحة ستافسكى وغيرها على الاعتقاد بانحلال هذه النظم ووجوب تعديلها ، بل قامت بعض جمعيات تدعو الى اقامة الدكتاتورية انقاذاً لفرنسا من هـذا الفساد الدستورى الخطر ؛ وظهرت فى دول أخرى مثل رومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا نزعة الى الاقتباس من الفاشستية والنازية ؛ ومن ثم فنى وسعنا أن نقارن مبادىء الفاشستية والنازية ، من بعض الوجوه بمبادىء الثورة الفرنسية التى تعدت حدود فرنسا واجتمعت حكومات أوربا المطلقة على مقاومتها

والآن نرى فى أوربا معسكرين عظيمين يتأهب كل منهما لمكافحة الآخر ؛ يتألف أحدهما من انكلترا وفرنسا وبلجيكا وروسيا ؛ ويتألف الثانى من المانيا وايطاليا ؛ وينحاز لكل منها بعض الدول الصغيرة ؛ فاذا تأملنا فى هذا التكوين من الناحية الدستورية الفينا الديموقراطية ممثلة فى الطريق الأول ، والنظم الطاغية ـ الفاشستية والنازية ـ ممثلة فى الطريق الآخر ؛ وقد رأينا أن الحرب الكبرى قامت على مثل هذا التقسيم فى القوى المتحاربة ؛ وأن الدائرة قد دارت على الحكومات المطلقة وعقد النصر للدول الديموقراطية ؛ وإذا تأملنا تاريخ أوربا خلال القرن التاسع عشر ، لمحنا أثر هذا النضال الدستورى فى معظم الحروب والمعارك التى دارت رحاها فيه ؛ فقد عقدت المعاهدة المقدسة فى سنة ١٨١٥ بين قيصر روسيا ، وإمبراطور النمسا ، وملك بروسيا ، أو بعبارة أخرى بين الأسر الثلاث التى تمثل الحكم المطلق وتتذرع بالحق الالهى ، وهم آل رومانوف ، وآل هبسبرج ، وآل هوهنزلرن ، وغرضها الظاهر توثيق عرى الأخوة المسيحية والتحالف بين الدول الثلاث ، وغرضها الحقيقى مقاومة الحركات الشعبية والدستورية ؛ وقد كانت أوربا طوال هذه القرن كله مسرحاً لكثير من هذه الحركات التى ترمى إلى الحد من طغيان الحكم المطلق ومساوئه ، وتنمية الحقوق العامة للفرد سواء فى الدولة أو المجتمع

إن مجرى السياسة الدولية الحالية يفصح بذاته عن مظاهر

تلك المعركة الكبرى التي يسير هذان المعسكران إلى خوضها ؛ فانكلترا وفرنسا تعملان من ناحية على مؤازرة عصبة الأمم ، واقالتها من عثرتها السحيقة في المسألة الحبشية ، ومن ورائهما السوفيت ودول أوربا الصغرى كلها تؤيد هذه الحركة ، لأن مبدأ السلامة المشتركة الذي أريد أن يكون دستور عصبة الأمم ضماناً لتحقيقه ، قد صار بعد ظفر الفاشستية المعتدية بالاستيلاء على الحبشة — وهي من أعضاء العصبة — عقيماً لا أثر له من الوجهة الدولية ؛ والدول الصغرى أضحت تخشى على مصايرها بعد انهيار هذا الضمان المشترك الذي كانت تعتمد عليه . وترى من جهة أخرى إيطاليا وألمانيا تسخران من عصبة الأمم ، ولا تدخران وسعاً في مناوأتها وعرقلة أعمالها لأن توطيد السلامة المشتركة وحريات الأمم وحقوقها إذا تحقق بعمل دولي قوي من جانب الدول الديموقراطية ، فانه يقف سداً في وجه أطماعهما في التوسع والاستعمار ، ويؤدي إلى ضعف النظم الداخلية التي تغذي هذه النزعة الخطرة على حقوق الأمم وحرياتها

والخلاصة أنه حيثما تأملنا في نواحي السياسة الدولية ألفينا مظاهر المعركة الحاسمة التي يوشك أن تخوضها الديموقراطية . والديموقراطية تلتزم خطة الدفاع لأنها بطبيعتها أقل ميلاً إلى الحرب ، ولأن الدول التي تمثلها ، هي فريق الدولة الراضية المستأثرة بالسيادة الاستعمارية الواسعة والموارد الغنية ؛ ولكنها ستضطر إلى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت ، وعندئذ تقع معركة الفصل في مصاير أوربا الجغرافية والدستورية ، وتقع معركة الفصل في مصاير المدنية ، فاما أن تفوز الديموقراطية فتفوز بذلك المدنية المؤسسة على احترام الحقوق والحريات البشرية ، وإما أن تفوز مبادىء القوة الهمجية التي تنادي بها الفاشستية والهتلرية ، وعندئذ تنهار نظم الحضارة المستنيرة وترجع أوربا إلى نظم العصور الوسطى

ولكن الديموقراطية التي صمدت لهذه القوى الهمجية منذ القرن التاسع عشر تستطيع بلا مراء أن تدافع عن نفسها ومن ورائها الرأي المستنير في العالم كله

***

هنري روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

إلى المحاماة ، في شخص المحامي الأول ، والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوي بك

في ١٣ مايو الماضي مات هنري روبير نقيب المحامين في باريس وعضو الأكاديمية ، ووقف لتأبينه النقيب « دي مورو جيافري » فقال : « إن المحاماة قد فقدت اليوم أكبر رجل وقع من شأنها منذ عهد بريه » . وهي عبارة تعطيك أبلغ فكرة عن مكانة هنري روبير في التاريخ ؛ فلعل « بريه » أكبر رجال المحاماة في التاريخ الفرنسي ؛ هو الذي حمل لواء الدفاع عن « لامنيه » ، وعن « شاتو بريان » ضد لويس فيليب عندما هتف قائلاً للدوقة « دي بري » : سيدتي ، إن ابنك هو الملك . وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك ! ثم ترافع عن البرنس لويس نابليون عندما طلب إعدامه فأنقذه دفاع « بريه » ليصير بعد سنين جلالة الأمبراطور ، وهو الذي كان يدافع عن المتهم في إحدى جنايات القتل فأخذ محامي المدعي المدني « النقيب كرسّون » يحذر القضاة من عبقرية الدفاع الذي سيسمعونه من نفر التاريخ القضائي في فرنسا . فاذا جاء هنري روبير بعد هذا الرجل الخالد دون أن يقف أمامه ش دستايج أو ليون ديفال أو جول فافر أو روس أو « ألو » أو محامي مدام لافارج الذي كان يقول عن نفسه : (أنا الدفاع » صديق الأمبراطور الشخصي أعني « لاشو » ؛ ثم باربو ؛ ثم لابوري ، لابوري الهائل ، الذي نفذ رصاص الحق إلى جسده ولم ينفذ الرعب إلى قلبه ، فطلب تأجيل قضية إميل زولا حتى يبرح المستشفى ليترافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص ؛ لابوري الذي قال عنه هنري روبير وهو يلقي الكلام في تأبينه : « قوة من قوى الطبيعة ومارد في موقف الدفاع » ؛ ثم دي بوي أستاذ بوانكاريه ؛ والرئيس أو النقيب بوانكاريه نفسه ، محامي جونكور وجائزة جونكور ووصية جونكور ؛ والرئيس ڤيڤياني أو البلاغة كما كان يسميه بنو العصر ؛ وشنى « أفضلنا » كما كان يقول هنري روبير ؛ ووالدك روسو ؛ والنقيب